عدد خاص

دور الحجازيون في دعم مقاومة المصريين لمواجهة الحملة الفرنسية على مصر (1798 – 1801م / 1213 – 1216ه).

إعداد

د/ أحمد سعيد السيد زيدان

عدد مهداه أبحاثه لروح أ.د.أحمد عبد العزيز

دورية الانسانيات. كلية الآداب. جامعة دمنهور

العدد الرابع و الستون - يناير -الجزء الرابع - لسنة 2025

دور الحجازيون في دعم مقاومة المصريين لمواجهة الحملة الفرنسية على مصر (1798 – 1801م / 1213 – 1216هـ).

د/ أحمد سعيد السيد زيدان

مقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، أما بعد:

تمثل الدراسة الحالية فصلاً من فصول النضال المشترك بين الشعبين المصري والحجازي؛ فقد نظر الحجازيون للحملة الفرنسية على مصر على أنها عدوان على العالم الإسلامي، وهو الأمر الذي يستوجب مواجهته بالنفس، والعدة، والعتاد. وكان الدعم الشعبي في الحجاز لمواجهة الحملة الفرنسية على مصر على أشدة؛ حتى أن النساء كانت تقدمن حليهن دعماً للجهاد. كما كان للتجار الحجازيين دور هام في جمع التبرعات، وقاموا بتوفير السفن لحمل المؤن من الأرز، والحبوب، والمتطوعين، والأسلحة كالبنادق الصغيرة والحراب والسيوف.

ونزلت كافة الإمدادات القادمة من الحجاز إلى مصر في ميناء القصير على البحر الأحمر، وصادف نزول القوات الحجازية وجود أسطول فرنسي في القصير، وقامت القوات الحجازية بضرب الأسطول الفرنسي ضرباً شديداً، وفر الأسطول الفرنسي عائداً إلى السويس أمام شدة هجمات الحجازيين. وانضمت القوات الحجازية مع قوات "مراد بك" لمواجهة الفرنسيين. ولقد وصف الفرنسيين معارك الحجازيين على إنها المعارك الأكثر شراسة، كما كانت هجمات الحجازيين أحد الأسباب التي دفعت نابليون بونابرت لإنهاء حملته على الشام، كما سيتضح فيما بعد خلال الدراسة.

أما فيما يتعلق بالموقف السياسي، فقد كان الشريف "غالب بن مساعد (1202هـ/ 1788م– 1228هـ/ 1813م)" هو شريف مكة وحاكمها، وفي واقع الأمر فإن الشريف "غالب" لم يتورط في إعلان الحرب مباشرة على الفرنسيين إلا أنه في الوقت نفسه قدم المساعدات من أسلحة وسفن لنقل المجاهدين إلى مصر، وفي الوقت ذاته، فإنه تبادل الرسائل مع نابليون بونابرت، كما سيتبين خلال الدراسة.

ويمكن القول ببساطة أن حركة الجهاد الحجازية ضد الفرنسيين في مصر كانت حركة شعبية نابعة من المجتمع الحجازي ولم يكن لها دوافع سياسية. كما كانت مقاومة

الحجازيون للحملة الفرنسية في مصر عاملاً مؤثراً في ارتفاع الروح المعنوية للمصريين وخاصة بعد انتشار الأخبار حول بطولاتهم في الصعيد.

وخلال الدراسة الحالية سوف يتم تناول موضوعات تتعلق بالحملة الفرنسية على مصر وتطلع نابليون إلى الحجاز، ودعوة الجهاد في الحجاز ضد الحملة الفرنسية على مصر، ودور المجتمع الحجازي في مواجهة الحملة على مصر، والدور السياسي لشريف مكة لمواجهة الحملة، ونتائج حملات الحجازيين دعماً لمقاومة المصريين ضد الحملة الفرنسية.

نبذة تاريخية عن العلاقات المصرية الحجازية قبل الحملة الفرنسية على مصر:

كان ارتباط مصر الحضاري والاقتصادي والبشري مع شبه الجزيرة العربية بوجه عام والحجاز بوجه خاص قائماً منذ القدم، وازداد هذا الارتباط قوة واندماجاً مع الفتح الإسلامي لمصر في عام 21هـ/ 641مـ، ووفود الهجرات العربية إليها، واستقرارها على أرض مصر، ثم تعريب مصر واندماجها في كيان الأمة العربية الإسلامية. ولقد أصبحت القاهرة في فترات من التاريخ الإسلامي، وحتى نهاية العصر المملوكي 923هـ/ 1517م عاصمة للدولة التي لها السلطان على مصر ومعظم شبه الجزيرة العربية[1].

كان الحجاز هو بوابة مصر لتجارة الشرق، وكان ميناء جدة هو الميناء الرئيس لتجارة مصر مع الهند. وبعد دخول العثمانيين مصر في أعقاب معركة الريدانية 1517م، بدأ العثمانيين يتجهون بأنظارهم إلى الحجاز حتى يتمتعوا بلقب "حماة الحرمين الشريفين". ولقد دفع الخطر البرتغالي وتهديده للبحر الأحمر وللمقدسات الإسلامية في الحجاز قيام السلطان العثماني بفرض سيادته على الحجاز بغية حمايته من أي اعتداء برتغالي. وحقيقة الأمر أن مصر كانت مركزاً حيوياً لقوافل الحجيج الوافدة من المغرب ومن وسط أفريقيا، بجانب وجود عدد ضخم من الأوقاف المصرية المحبوسة للحجاز[2]. ولذلك أوصى السلطان العثماني "سليم الأول (1512– 1520)" منذ البداية بارتباط تبعية الحجاز للدولة في مصر، ونتج عن ذلك تبعية الحجاز واليمن وباشوية الحبش لمصر إدارياً. وجاء في النظام والقانون العثماني أن قرارات الدولة وفرماناتها تنفذ في الحجاز واليمن وولاية الحبش عن طريق ديوان مصر، حتى أن الحملات العسكرية كان لابد من مرورها بمصر أولاً طبقاً لهذا النظام. وأصبحت بذلك مصر هي همزة الوصل الرئيسية بين إسطنبول والحجاز، لذا

---

[1] عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، "الحجازيون في مصر في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي"، **الدارة**- السعودية، مجلد 11، عدد 1، 1985، صـ 141.

[2] حسام محمد عبد المعطي، **العلاقات المصرية الحجازية في القرن الثامن عشر**، تاريخ المصريين، العدد 149، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999، صـ 17- 19.

فقد كان كبار الموظفين في الدولة يمرون بها قبل وصولهم إلى الحجاز، وكانت غالباً تتحمل مصاريف انتقال هؤلاء الموظفين إلى الحجاز[3].

وأما في مجال العلاقات الاجتماعية بين مصر والحجاز، فقد عاشت الجالية الحجازية في مصر ضمن الجاليات العديدة التي وجدت بها، وبدأت هجرات القبائل الحجازية إلى مصر منذ الفتح الإسلامي وحتى القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، واستقرت بعض فروع هذه القبائل في ريف مصر وكونت تلك القبائل تجمعات سكنية أصبحت تشكل نجوعاً وقرى بأسماء هذه القبائل التي استقرت فروعها مثل (حرب، وسليم، وجهينة)، وقد استقر معظم هذه الفروع في صعيد مصر في أقاليم المنيا وأسيوط وسوهاج. أما في الوجه البحري فقد استقرت بعض فروع من القبائل الحجازية في قرى أقاليم الشرقية والغربية والقليوبية، بجانب الفروع التي فضلت التجوال والترحال من شمال البلاد إلى أقصى الجنوب، وعرفت هذه الفروع المتجولة في ريف مصر باسم (عرب الخيش) لاستعمالهم في سكناهم خياماً من الخيش المصنوعة من صوف الأغنام[4]. كما استقر الحجازيون في الإسكندرية وعمل أغلبهم في ميناء الإسكندرية[5].مارس الحجازيون في مصر أنشطة اقتصادية عديدة فشاركوا في قطاعات التجارة والأموال والحرف والصناعات، وشارك بعضهم في حرفة الصياغة، كما احترف بعض الحجازيين حرفة البحارة على المراكب، كما عمل بعض الحجازيون في الصيارفة، والنجارة[6]. وكانت ممارسات الحجازيين في مجال الصيارفة دليلاً على امتلاكهم رؤوس أموال ضخمة كانوا يعملون على استثمارها. كما امتلك الحجازيون الحوانيت المختلفة، واشتغلوا بالمتاجرة في مختلف السلع التي كانت تتداول بالأسواق المصرية[7] مثل التجارة في الجبن والعسل والأرز والدقيق والتين والقمح وتجارة الجمال والبقر والمنسوجات[8]. كما وجد في مصر كذلك فئة السادة (الأشراف) من الحجازيين والذين أصبحوا ملتزمين في القرنين السابع عشر والثامن عشر

---

[3] حسام محمد عبد المعطي، **العلاقات المصرية الحجازية**، صـ 40- 51.

[4] عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، **الحجازيون في مصر**، صـ 144، 145.

[5] حسام محمد عبد المعطي، **العلاقات المصرية الحجازية**، صـ334.

[6] صلاح أحمد هريدي، **الجاليات في مدينة الإسكندرية في العصر العثماني (923 – 1213هـ/ 1517 – 1798م) – دراسة وثائقية من سجلات المحكمة الشرعية**، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، 1424هـ/ 2004م، صـ 148 – 150.

[7] حسام محمد عبد المعطي، **العلاقات المصرية الحجازية**، صـ 331.

[8] صلاح أحمد هريدي، **الجاليات في مدينة الإسكندرية**، صـ 142.

الميلادي[9]. وعمل الحجازيون في مصر كذلك في الأجهزة الإدارية للأوقاف سواء كانت الأهلية أو السلطانية. وامتلكوا عديد من العقارات واستثمروها تأجيراً وسكناً وزراعة إذا كانت من الأراضي التي تزرع[10].

وأما في الحجاز، فقد وجدت جالية مصرية كبيرة خلال القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، وكان هذا عائداً بشكل أساسي لعلاقات الحج، وترتب على ذلك إقامة بعض المصريين في الحجاز إقامة مؤقتة وفى أحيان أخرى إقامة دائمة. وأما الداعي الثاني لوجود جالية مصرية كبيرة في الحجاز فكان عائداً للعلاقات التجارية النشطة بشكل أساسي[11]، بجانب اشتغال بعض المصريين بالحرف المختلفة في الحجاز فاشتغلوا في النجارة وتخريز القرب وفى مهنة الإسكافي[12].

طرق الاتصال بين مصر والحجاز:

اتصال مصر بشبه الجزيرة العربية بوجه عام وإقليم الحجاز بوجه خاص كان يتم منذ القدم براً وبحراً، وقد عرف المسلك البرى تاريخياً باسم **طريق الحاج أو الدرب المصري؛** فكان يسلك هذا الطريق الحجاج وكذلك التجار، وتوفرت في هذا الطريق محطات بها وسائل الراحة الضرورية لقافلة الحاج ولقوافل التجار[13]، وكانت هذه الرحلة تستغرق ما يزيد قليلاً عن ثلاثة أشهر، وكان نقل البضائع بالبر أكثر كلفة عن نقلها عبر البحر، ولكن التجار اعتادوا ارتياد هذا الطريق لأن الإبحار في البحر الأحمر كان صعباً في بعض الأوقات بسبب الرياح الموسمية التي كانت تؤدى إلى تعطل الملاحة لما يقارب نصف العام[14].

أما بالنسبة **لطرق الاتصال البحرية بين مصر والحجاز**، فكانت تتم بواسطة سفن صغيرة تأتى من مينائي جدة أو ينبع من ناحية الحجاز وترسو في مصر عند مينائي

---

(9) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، **الريف المصري في القرن الثامن عشر**، (القاهرة، مكتبة مدبولي، 1986)، ط 2، صـ 151، 152.

(10) حسام محمد عبد المعطي، **العلاقات المصرية الحجازية**، صـ 331، 334.

(11) القحطاني، حمد محمد جاسم؛ عبد الرحيم، عبد الرحيم عبد الرحمن، **الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في إقليم الحجاز**، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد 104، الكويت، 2002، صـ 284..

(12) حسام محمد عبد المعطي، **العلاقات المصرية الحجازية**، صـ 337 – 339. ولقد عاش المصريين في الحجاز منذ القدم وقبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد حدث قبل البعثة النبوية بحوالي خمس سنوات حدوث سيل عظيم صدع جدران الكعبة، فأعادت قريش بناءها مستعينة في ذلك بنجار قبطي (مصري) كان يسكن مكة ويدعى "باقوم". كما أن الصحابي "جبر بن عبد الله القبطي" كان أحد الصحابة الذين أخذ عن النبي دينهم، وكان هو رسول "المقوقس" إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بمارية القبطية. انظر: "هريدي، **مرجع سابق**، صـ 139".

(13) عبد الرحيم عبد الرحمن، **الحجازيون في مصر في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي**، صـ 134، 144.

(14) نللي حنا، **تجار القاهرة في العصر العثماني – سيرة أبو طاقية شاهبندر التجار**، ترجمة وتقديم: رءوف عباس، (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 1997)، صـ 119.

القصير أو السويس[15]. واشتهرت الملاحة في البحر الأحمر بما تواجهه من صعوبات كبيرة وخاصة في الجزء الشمالي منه وذلك بسبب فعل اتجاهات الرياح والتيارات البحرية الشديدة بجانب الشعاب المتوارية تحت المياه. ولذلك اعتاد التجار على تقسيم شحنات البضائع الواردة من الحجاز على عدد من السفن لتقليل حجم الخسائر إن حدثت كارثة[16].

الحملة الفرنسية على مصر، أسبابها، وظروف مقاومة المصريين لها:

كانت أحداث الحملة الفرنسية على مصر في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، مرتبطة بشكل وثيق بالصراع الاستعماري العالمي بين إنجلترا وفرنسا، وكانت فرنسا قد بدأت سياسة استعمارية جديدة اعتباراً من النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي؛ حيث لعب التنافس الفرنسي مع الإنجليز في بلاد ما وراء البحار دوراً هاماً في إظهار هذه السياسة. ولقد تأكد أهمية الموقع المصري في إطار الصراع الدائر بين إنجلترا وفرنسا من خلال التقرير الذي قدمه نابليون بونابرت إلى حكومة الإدارة في فرنسا في شهر فبراير 1798م، والذي حلل فيه وقارن بين مشروع الحملة الفرنسية على إنجلترا كعدو لدود وبين الحملة على مصر والشرق، حيث رأى أن الحملة على إنجلترا تبدو في نظره غير ممكنة نظراً للمصاعب التي ستواجهها في القارة الأوروبية والتي سوف تعترض إمكانية تنفيذها، لضعف إمكانات الأسطول الفرنسي والموانئ الأوروبية التابعة لفرنسا في أوروبا ضد الأسطول الإنجليزي، وإزاء تخليه عن فكرة غزو إنجلترا اقترح حلين لإنهاء الموقف، الأول: يتمثل في تكثيف الحصار الاقتصادي من جانب حكومة الإدارة ضد إنجلترا والسعي لسد ثغرات الحصار القاري ضدها، أما الثاني: فيقوم بتنفيذ حملة في شرق البحر المتوسط من شأنها تهديد تجارة الهند. وأوضح نابليون أن الغرض الأول من حملة الفرنسيين على مصر هو القضاء على شوكة الإنجليز في الشرق إذ لا طريق غير وادي النيل للجيش الذي يناط به هذه المهمة الخطيرة بتغيير مجرى الأحوال في الهند. وكان بديهياً أن يفضي الاستيلاء على مصر إلى ضياع جميع المستعمرات الإنجليزية في أمريكا والهند، وأنه متى أصبح الفرنسيون أصحاب الكلمة العليا في مرافئ إيطاليا وجزيرة كورفو وجزيرة مالطا والإسكندرية،

---

(15) جيرار، **الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر**، ضمن موسوعة وصف مصر، تأليف علماء الحملة الفرنسية، المجلد الرابع، الجزء الأول: "الزراعة – الصناعات والحرف – التجارة"، ترجمة: زهير الشايب، (مصر: مكتبة الخانجي، 1978)، صـ 297.

(16) أندريه ريمون، **الحرفيون والتجار في القاهرة في القرن الثامن عشر**، ترجمة: ناصر أحمد إبراهيم؛ باتسي جمال الدين، مراجعة وإشراف: رءوف عباس، (القاهرة: المشروع القومي للترجمة- المجلس الأعلى للثقافة، 2005)، صـ 246.

صار البحر المتوسط لا محالة بحيرة فرنسية [17]. ولقد وافقت حكومة الإدارة على تقرير بونابرت، وأعلنت في قرارها الأخير عن تخليها عن غزو إنجلترا والتمسك بمشروع الحملة على مصر والذي من شأنه إجبار إنجلترا على عقد الصلح وضمان هيمنة فرنسا على القارة الأوروبية، فضلاً عن انتزاعها مكاسب اقتصادية كبيرة نتيجة سيطرتها على طرق التجارة وأهمها البحر الأحمر، فضلاً عن توطيد العلاقات مع "تيبو صاحب (1782-1799م): Tipoo Saib" سلطان ميسور والذي كان من ألد أعداء الإنجليز في الهند[18]. ولهذا فإنه يمكن القول أن الحملة الفرنسية على مصر كان لها أهداف استراتيجية بعيدة المدى. وعندما جاء نابليون إلى مصر، والتي كان يسميها العاصمة الطبيعية للأمة العربية، والركيزة الهامة لأي امبراطورية تبغي السيطرة على أوروبا وآسيا في وقت واحد، كان يهدف إلى امتلاكها امتلاكاً تاماً وجعلها مستعمرة فرنسية تعوض فرنسا عما فقدته في أمريكا والهند، وتهيئ لها سبيل الاستحواذ على تجارة الهند[19].

نزول الحملة الفرنسية على مصر:

أبحر "نابليون بونابرت (1769- 1821م): Napoleon Bonaparte" على رأس الأسطول الفرنسي من ميناء طولون بفرنسا بجيش قوامه 38 ألف جندي، وتألف الأسطول الفرنسي القادم لمصر من ثلاث عشرة بارجة تحمل 1026 مدفعاً، و42 فرقاطة ومركباً خفيفاً، وزورق بريد وغيرها من صغار السفن، و130 ناقلة من شتى الأنواع، وأكثر من ألف قطعة من مدفعية الميدان، و مئة ألف قطعة من الذخيرة، و567 عربة، و700 حصان[20].

استولى نابليون في طريقه إلى مصر على جزيرة مالطة في 1798/6/12م، وظهر أمام سواحل الإسكندرية في 1798/7/1م دون أن يعلن الحرب على الدولة العثمانية[21]، كان الفرنسيون واهمين في تصورهم استقبال الشعب المصري لهم وترحيبه

---

[17] عصام محمد شبارو، **المقاومة الشعبية المصرية للاحتلال الفرنسي والغزو البريطاني**، (بيروت- لبنان: دار التضامن للطباعة والنشر والتوزيع، 1992م)، صـ 30.

[18] عبد المعطي البيومي سالم الدريني، **العلاقات بين نابليون بونابرت والحجاز**، المؤتمر الدولي الثالث: العلاقات المصرية الفرنسية عبر العصور، جامعة قناة السويس- كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2011، صـ 211.

[19] عصام محمد شبارو، **المقاومة الشعبية المصرية للاحتلال الفرنسي والغزو البريطاني**، صـ 42.

[20] ج. كرستوفر هيرولد، **بونابرت في مصر**، ترجمة: فؤاد أندوراس، مراجعة: محمد أحمد أنيس، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998)، صـ 11.

[21] عزت حسن أفندي الدارندلي، **الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط عثماني- مخطوطة "ضيانامة" للدارندلي**، دراسة وترجمة: جمال سعيد عبد الغني، (القاهرة: تاريخ المصريين- الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد 134)، 199، صـ 21.

بهم. فالمصريون والفرنسيون كانوا مختلفين في كثير من النواحي، ويمثل كل منهم حضارة ومجتمعاً وتفكيراً يختلف عن الآخر، فللمصريين تراث من التقاليد والعادات يغارون عليه ويعملون على بقائه، وكانت الحملة الفرنسية في نظرهم تمثل عدواناً مسيحياً على تراثهم العربي الإسلامي وعلى وطنهم الإسلامي، وعلى ذلك فقد ناصبهم المصريون العداء. وعندما بلغ الجيش الفرنسي الإسكندرية صمم حاكمها السيد "محمد كريم"[22] على مقاومة الفرنسيين والدفاع عنها. وعندما أصدر نابليون أمره بالهجوم العام أخذ الأهالي يطلقون النار من المدافع المركبة على الأبراج والأسوار، لكن الصمود لم يدم طويلاً فاقتحم الجنود الأسوار ودخلوا المدينة. وعندما دخل الفرنسيون المدينة كانت مقاومة الأهالي قد أنزلت بهم الخسائر، فهاجموا الناس في بيوتهم بعد أن اتخذها أهل المدينة متاريس لهم[23]. واستولى "نابليون" على المدينة، وزحف على القاهرة، وتصدى له المماليك في موقعة إمبابة، غير أنهم هزموا، وفر مراد بك إلى الصعيد. ولما كان بونابرت يعمل على إضعاف قوة المماليك فقد توجه ومعه جزء من جيشه إلى بلبيس لمواجهة "إبراهيم بك" والوالي العثماني "أبو بكر باشا"، وتابع إبراهيم بك إلى الصالحية، وتحقق لقواته النصر عليهم مما أجبر إبراهيم بك ومن معه التوجه إلى غزة، وعاد بونابرت إلى القاهرة[24].

ولقد وصف المؤرخ "عبد الرحمن الجبرتي"[25] أحداث عام 1798م/ 1213هـ وقت نزول الحملة الفرنسية على مصر بأوصاف قوية تدل على النكبة والخراب، حيث قال: "وهي أولى سني الملاحم العظيمة، والحوادث الجسيمة، وتضاعف الشرور، وترادف الأمور، وتوالي المحن، واختلال الزمن، وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع

---

[22] حاكم الإسكندرية وقت نزول الحملة الفرنسية على مصر، وتزعم مقاومة المصريين في الإسكندرية، وكانت لها مواقف ثورية ضد الحملة الفرنسية، وأعدمه الفرنسيون في سبتمبر 1798م.

[23] عصام محمد شبارو، **المقاومة الشعبية المصرية للاحتلال الفرنسي والغزو البريطاني**، صـ 29- 34.

[24] حسين بن محمد الغامدي، "دور عرب الحجاز في مقاومة الحملة الفرنسية على مصر (1213-1216هـ/ 1798- 1801م)"، مجلة الدارة، مجلد 25، عدد 1، (1420هـ/ 1999م)، صـ 12.

[25] يقول الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عن المؤرخ الجبرتي: "وقد كان الجبرتي مؤرخاً منصفاً. فلم يعمل فكره وقلمه ضد الفرنسيين كمحتلين لأرض الوطن، وإنما سجل لهم فضلهم الحضاري في الأمور العلمية، وفتح أبواب المجمع العلمي أمام طلاب العلم، وتشجيعهم على الاطلاع والبحث، وكذلك ضبطهم للأحكام. وقد حفظ لنا الجبرتي خلال تسجيله لأحداث الفترة كل الوثائق التي صدرت من قادة الحملة وعن الديوان والعلماء، وهي وثائق في غاية الأهمية للتأريخ للحملة الفرنسية أثناء فترة وجودها بمصر، وهذا فضل يذكر للجبرتي. انظر:"عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، تحقيق الأستاذ الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، الجزء الثالث، (القاهرة: الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصرة، 1998)، صـ د.

الأهوال، واختلاف الأحوال، وفساد التدبير، وحصول التدمير، وعموم الخراب، وتواتر الأسباب، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[26]...."[27].

الحملة في الصعيد:

توجه "مراد بك" بجيشه إلى الصعيد من أجل حشد القوات اللازمة والاستمرار في مقاومة الفرنسيين. وسعى "نابليون" في سياسة التفاوض مع "مراد بك"، وفي 18 صفر 1213هـ/ الأول من أغسطس 1798 أرسل نابليون إليه "كارلو روزيتي: **Carlo Rossetti**" القنصل العام للنمسا وروسيا بالقاهرة، وأعطاه كافة الصلاحيات للتفاوض مع "مراد بك" وعرض عليه حكم إقليم جرجا، إلا أن "مراد بك" رفض هذا العرض وقدم إلى نابليون عرضاً آخر يتضمن استعداده لدفع 10.000 كيس نقود على أن يعود نابليون بونابرت بجيشه إلى بلاده حقناً لدماء جنوده[28]. ولقد قرر بونابرت السيطرة على الصعيد؛ حيث كان بقاء "مراد بك" ببلاد الصعيد حراً طليقاً قد جعل سكان الأقاليم المحتلة ينتظرون عودته ويتحمسون له ويستجيبون لدعوته بمقاومة الفرنسيين، ونظراً لأن الفرنسيين كانوا في حاجة إلى الأموال فإنه كان من الضروري طرد "مراد بك" من بلاد الصعيد قبل أن يقوم هو بجمع الضرائب من الأهالي. هذا فضلاً على أن بقاء قوة معادية لنابليون في الصعيد يهدد سلطة القاهرة والدلتا وجنود الحملة بحدوث مجاعة، وكانت الملاحة في النيل قد تعطلت في الشهور الأولى من احتلال القاهرة، كما حبس "مراد بك" في الوجه القبلي السفن المحملة غلالاً إلى القاهرة، ولهذه الأسباب مجتمعة، قرر نابليون احتلال الصعيد والقضاء على قوة "مراد بك"[29].

قام "نابليون" بتعيين الجنرال "ديزيه: Desiax" لإدارة إقليم الصعيد، وطرد "مراد بك"، و"ديزيه" هو أحد القادة الذين ظهرت كفاءتهم ومقدرتهم وتجلت مواهبهم في الحروب السابقة مع نابليون. وكان "مراد بك" قد اتخذ من البهنسا[30] مقراً لجيشه، ولحق به المماليك الذين لم يرضوا أن يتبعوا "إبراهيم بك" في فراره نحو الشام. حيث حضر إليه خصومه

---

[26] **سورة هود**: آية 117.

[27] عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، صـ 1.

[28] الغامدي، دور عرب الحجاز في مقاومة الحملة الفرنسية على مصر، صـ 10.

[29] الغامدي، **دور عرب الحجاز في مقاومة الحملة الفرنسية على مصر**، صـ 14.

[30] البهنسا: من البلاد القديمة بمركز بني مزار، مديرية المنيا، وهي من الأقسام الإدارية القديمة بالصعيد. انظر: "حسين بن محمد الغامدي، **دور عرب الحجاز في مقاومة الحملة الفرنسية على مصر**، صـ 49".

"حسن بك الجداوي"، و"عثمان بك حسن" مماليك "على بك الكبير"، وتناسوا ما بينهم من خلافات واتفقوا على الاستعداد لمواجهة الفرنسيين، كما التف حوله عدد من العربان.

في ليلة 25– 26 أغسطس 1798م بدأ الجنرال "ديزيه" زحفه من الجيزة مطارداً مراد بك ومعه 2861 من المشاة ومدفعان. وهكذا بدأت حملة استمرت تسعة أشهر، واضطرت "ديزيه" وفرقته إلى الزحف والتقهقر مسافات لا تقل جملتها عن 3000 ميل[31]. وهو الأمر الذي دفع نابليون بونابرت إلى تعزيز قوة "ديزيه" في الصعيد، فأرسل إليه إمدادات بقيادة القائد "بليار". وبعد أن وصلت الإمدادات العسكرية إلى قوات "ديزيه" بالصعيد، كان على "مراد بك" أن يعمل على تجميع المزيد من القوات لمواجهة قوات نابليون، فاستعان في ذلك بقوات من المماليك أو من الأهالي أو من العربان من داخل البلاد أو الاستعانة بالمسلمين المجاهدين من خارجها. وقد انتهز فرصة الثورة والهياج في معظم بلاد الصعيد والذي تجاوبت أصداؤه في البلاد الإسلامية المجاورة، وارسل في طلب النجدة من أشراف مكة وعرب ينبع وجدة، وأنفذ رسله أيضاً إلى النوبة في جنوب مصر لاستنفار المسلمين للجهاد ضد الفرنسيين، كما أرسل إلى زعماء القبائل في شبه الجزيرة العربية عبر البحر الأحمر[32].

موقف الدولة العثمانية من الحملة الفرنسية على مصر:

اتسم موقف الدولة العثمانية في البداية بالتردد في اتخاذ موقف إيجابي من فرنسا، ولعل كان ذلك عائداً إلى ضعفها من ناحية، ومن ناحية أخرى كانت تخشى أن تكون هذه الحملة مقدمة لمخطط أوروبي عام يستهدف ممتلكاتها. إلا أن الدولة العثمانية لم تعلن عدائها لفرنسا إلا بعد انتصار "نلسن: Nelson" قائد الأسطول البريطاني على الأسطول الفرنسي في موقعة أبي قير البحرية في أغسطس 1798، حيث شددت بريطانيا وروسيا على الدولة العثمانية لإعلان الحرب على فرنسا[33].

كان إعلان السلطان سليم الثالث (1789– 1807م) الحرب على فرنسا بمثابة إعلان الجهاد الديني ضد الفرنسيين. واستجاب لهذه الدعوة العرب في الحجاز والشام وشمال أفريقيا، وهو خير مثال على الترابط الديني بين سكان الولايات العربية إبان الحكم العثماني، ولم يكتف السلطان بذلك، بل شهدت العاصمة العثمانية إستانبول نشاطاً

---

[31] ج. كرستوفر هيرولد، **بونابرت في مصر**، صـ 239.

[32] الغامدي، **دور عرب الحجاز في مقاومة الحملة الفرنسية على مصر**، صـ 16.

[33] الغامدي، **دور عرب الحجاز في مقاومة الحملة الفرنسية على مصر**، صـ 8.

دبلوماسياً كبيراً، فقد تم إرسال خطابات إلى كل من "الشريف غالب بن مساعد" شريف مكة و"الإمام المنصور علي" إمام اليمن بضرورة التعاون مع قوات روسيا وبريطانيا لأنهما حليفتان للسلطان. كما ضبط في مصر فرمان سلطاني بكتابات من "أحمد باشا الجزار" والي عكا و"إبراهيم بك" وغيرهما للحض على الجهاد، حيث ضبطت هذه المنشورات في مصر في أكتوبر 1798م، وكافح نابليون للتقليل من شأن ذلك فكان يقوم باستكتاب المشايخ للمنشورات لتهدئة الثوار وإخماد الفتنة ومطالبة الأهالي بأداء ما عليهم من خراج، ومنشورات أخرى لتبرئة الفرنسيين مما جاء بحقهم في الفرمان السلطاني. وكان يتم إلصاق هذه المنشورات في الشوارع،

كما صدر فرمان عثماني لكافة أبناء المسلمين في الدولة العثمانية للحث على جهاد الفرنسيين في الثامن من أكتوبر 1798 يشرح الأسباب والظروف والملابسات التي أدت بفرنسا لاحتلال مصر، ودوافع الدولة العثمانية إعلان الحرب والجهاد وعدم التقاعس والخذلان عن نصرة الحق والدين، فكان بمثابة حرب دبلوماسية على الفرنسيين في مصر[34].

سياسة نابليون بونابرت تجاه أمراء المسلمين المجاورين للإقليم المصري:

قام نابليون بونابرت بإيفاد المبعوثين وبالكتابة إلى أمراء المسلمين وحكامهم في الأقطار المجاورة لمصر التي كانت ولا تزال تحت لواء الخلافة العثمانية في محاولة منه لتهدئة خواطرهم وإظهار نياته ومحاولة إقناعهم زاعماً رغبته الصادقة في إحياء قوة الإسلام وما يكنه من محبة للمسلمين وابتعاده عن كل ما يؤذيهم في عقائدهم، وإيجاد نوع من الاتصال فيما بينه وبينهم، فقد بعث برسائل إلى حاكم درنة طرابلس وحاكم طرابلس يطلب عقد أواصر المحبة معهما، كما كتب إلى إمام مسقط وطلب منه أن يكتب بدوره إلى "تيبو صاحب" بالهند، ثم كتب هو مباشرة إليه وإلى "عبد الرحمن الرشيد" سلطان دارفور وإلى شريف مكة وإلى إمام اليمن "المنصور بالله علي بن العباس (1151– 1224هـ)"، وطلب من الأخيرين ربط موانئ جدة ومخا والقصير والسويس ببعضها لتنشيط حركة التجارة فيها. واستكتب أعضاء ديوان القاهرة رسالة إلى شريف مكة في 20 ربيع الأول 1213هـ/ أول سبتمبر 1798م لإيضاح الجهود التي بذلها بونابرت لتأمين طريق الحج والثناء على سياسته ومدى اهتمامه بأعياد المصريين وبخاصة الأعياد الإسلامية واشتراكه في الاحتفالات والمهرجانات التي تقام في هذه الأعياد. كما حاول الاتصال بـ "أحمد باشا

---

[34] عبد المعطي البيومي سالم الدريني، العلاقات بين نابليون بونابرت والحجاز، صـ 213، 214.

الجزار" والي عكا بالشام. وفيما عدا رد شريف مكة، الذي كان يعتمد في دخله على قوافل الحجاج القادمة من مصر وعلى صادرات البن إليها، فإن بونابرت لم يظفر بأي رد آخر. وكانت عبارات الشريف المطمئنة ذاتها تنطوي على الخديعة، فقد أدرك الحكام المسلمين الخديعة التي حاول نابليون بونابرت أن يصل بها إليهم بادعائه الصداقة للسلطان والإسلام، وبخاصة بعد أن علموا نبأ إعلان السلطان الحرب على الفرنسيين. فقد كانت هذه المحاولات تهدف إلى تهدئة خواطر المسلمين والدول الإسلامية المجاورة لمصر والعمل على عدم إثارة المشاعر الدينية للمسلمين في هذه البلاد لمنع قيامهم بمساعدة المصريين في الوقوف في وجه الفرنسيين[35].

وفيما يتعلق بموقف الشريف غالب بن مساعد في مكة، فكان موقفه تجاه الحملة الفرنسية مغايراً لباقي أمراء المسلمين في البلدان المجاورة، ومثل موقفه الموقف السياسي في الحجاز تجاه الحملة الفرنسية على مصر. ففي أغسطس 1798م وصلت أخبار الحملة الفرنسية على مصر إلى الحجاز، مع وصول أوامر من الباب العالي بتحصين قلاع جدة والمدن المقدسة تحسباً لأي هجوم فرنسي، فأخذ الشريف في تحصين جدة، وأشرف بنفسه على عمليات ترميم القلاع. ولقد سبب احتلال الفرنسيين لمصر أزمة قوية للشريف غالب الذي وجد نفسه محروماً من أغلب الموارد الاقتصادية للحجاز مرة واحدة، فقد توقف وصول المواد الغذائية الرئيسية للحجاز من مصر، بجانب المبالغ النقدية الضخمة التي كان يتلقاها منها كل عام، كما توقفت قافلة الحج المصري التي كانت أحد مصادر الدخل المهمة للحرمين الشريفين، بجانب توقف النشاط التجاري بين جدة والسويس. وبالنسبة للدولة العثمانية فلم تستطع مد يد المساعدة للشريف مع وجود الحملة الفرنسية على مصر[36].

وفي 25 أغسطس بادر "نابليون بونابرت" بالاتصال بالشريف "غالب بن مساعد"، أي بعد شهر من دخول نابليون القاهرة، مما يوضح الأهمية الكبيرة التي كان يوليها نابليون للاتصال بالشريف غالب، ويرجع ذلك إلى أولاً: إلى قيام الأسطول الإنجليزي بتحطيم الأسطول الفرنسي في معركة أبي قير البحرية، وبالتالي قطع سبل التواصل بين الحملة في مصر وفرنسا. ولذلك كان لزاماً على قادة الحملة في مصر محاولة إيجاد أعوان لهم في المنطقة، ومحاولة تهيئة وسائل اتصال غير مباشرة تربطهم بالسلطة العليا في باريس.

---

(35) الغامدي، **دور عرب الحجاز في مقاومة الحملة الفرنسية على مصر**، صـ 11.

(36) عبد المعطي، **العلاقات المصرية الحجازية في القرن الثامن عشر**، صـ 57- 59.

وثانياً: أدرك نابليون أهمية الحركة التجارية بين السويس وجدة خاصة بعد توقف النشاط التجاري لموانئ الشمال المصري بسبب الحصار الإنجليزي لسواحل البحر المتوسط. ثالثاً: مكانة الأشراف للمسلمين ونسبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وإشراف شريف مكة على الحرمين الشريفين، فكان نابليون يدرك أن العقبة الكبرى التي تحول بينه وبين السيطرة على مصر هي عقبة الدين لذا فقد استغل مراسلاته مع حامي المقدسات الإسلامية، فحرص أن تنشر المراسلات وتعلق في شوارع القاهرة حتى يظهر الفرنسيون على ضوئها في مظهر الحريصين على إقامة شعائر الدين. رابعاً: رغبة نابليون في التعرف على إمكانية اتخاذ الحجاز كمحطة للبريد إلى الشرق، فقد أراد نابليون أن يقيم شبه حلقة اتصال بين مصر وبين حليفه "تيبو صاحب" في الهند، وذلك بالاتفاق مع كل من شريف مكة وسلطان مسقط الذي كتب إليه بنفس المعنى[37].

لقد كان الشريف غالب هو الحاكم الوحيد من الحكام المسلمين الذي رد على رسائل نابليون وعمل على كسب وده، والدخول معه في علاقات، ولعل السبب وراء ذلك يرجع إلى إدراك الشريف غالب مدى ضعف الدولة العثمانية وعجزها عن حماية ولاياتها فخشي أن تمتد يد نابليون إلى بلاده، ولذلك أسرع بالكتابة إليه ومهادنته حتى يأمن جانبه، بالإضافة إلى إدراك "الشريف غالب" مدى ضعفه الاقتصادي واعتماده الشديد على مصر بسبب المخصصات العينية والمالية الضخمة للحجاز بها، ودور قافلة الحج المصري في انعاش الاقتصاد الحجازي، ويضاف إلى ذلك أن مصر كانت السوق الرئيس للتجارة والبضائع الهندية التي تصل إلى جدة، لذلك لم يكن لدى الشريف مانع من التفاوض مع نابليون من أجل استمرار الحركة التجارية بين جدة والسويس ووصول قافلة الحج، بل طلب المخصصات وأموال الأوقاف في مصر. ولذلك تم تبادل ما يقرب من عشرة رسائل بين الشريف غالب ونابليون تناولت نقاط رئيسية وهي قافلة الحجيج وعوامل خروجها، والمخصصات النقدية والعينية المصرية للحجاز، بالإضافة إلى التجارة بين جدة والسويس ووصول السفن الحجازية إلى السويس حاملة البن والسلع الهندية، علاوة على الرسائل التي طلب نابليون من الشريف إرسالها إلى جهات معينة. لقد حرص نابليون من خلال رسائله إلى الشريف غالب على أن يكسب وده، فوعده بوصول قافلة الحج والأموال المخصصة في مصر إلى الحجاز، فيؤكد نابليون في رسالته الأولى قائلاً: "أطمئنكم على عذمي الوطيد على أن أحمي بكل السبل رحلة الحجيج إلى مكة وستظل المساجد وكل الأوقاف

---

[37] عبد المعطي، **العلاقات المصرية الحجازية في القرن الثامن عشر**، صـ 59، 60.

التي لمكة والمدينة في مصر في حوزتهما كما كانت في الماضي"[38]. وفي رسالته الثانية يؤكد نابليون بأنه أصدر أوامره بتعيين "مصطفى بك كتخدا" كأمير للحج، وأن الاستعدادات تجري لإخراجها في موعدها المحدد[39].

ولقد حرص "نابليون" من خلال مراسلاته مع "الشريف غالب" على طلب استمرار التجارة بين جدة والسويس، كما طلب من الشريف اقناع التجار في جدة لإرسال سفنهم إلى السويس، مؤكدا له على حسن المعاملة لهم، فطلب الشريف تحديد القيم الجمركية على السلع قبل وصولها إلى السويس، كما طلب ضرورة تأمين التجارة عند نقلها من السويس إلى القاهرة[40]. وقد وصلت بالفعل السفن من جدة في شهر ذي الحجة 1213هـ/ 1799م، فيقول المؤرخ "عبد الرحمن الجبرتي": "وفيه حضر إلى السويس تسع داوات بها بن وبهار وبها بضائع لشريف مكة نحو الخمسمائة فرق بن، ولتشجيع الشريف على إرسال السفن والتجارة مرة أخرى، تم إعفاء ال 50 فرق بن التابعة له من الجمارك.

وتحليلا لموقف الشريف غالب من دعوات الجهاد في الحجاز ضد الحملة الفرنسية في مصر، فمن الملاحظ أن نابليون بونابرت أخذ في مراسلة الشريف غالب منذ 25 أغسطس 1798م، وأن الشريف غالب قد تجاوب مع تلك المراسلات، وفي الوقت نفسه تجاوب مع دعوات الجهاد. فقد أشرف "الشريف غالب" على تحصين قلاع جدة بنفسه، ولكن عندما أدرك شريف مكة أن مسألة قيام الفرنسيين بمهاجمة الحجاز ليس لها وجود، فقد أصبح انتظار وصولهم يمثل عبء كبير على إدارته، ولذلك فإنه فور إعلان الشيخ "محمد الكيلاني" عزمه الرحيل إلى مصر لمهاجمة الفرنسيين وقتالهم فقد رحب الشريف بذلك الأمر. وفي واقع الأمر أن الشريف "غالب" لم يملك من الإمكانيات اللازمة لصد الرغبة الجارفة من الحجازيين لمقاومة الحملة في مصر؛ وخاصة لاتخاذ هذه الدعوة شكل تيار ديني. وفي الوقت نفسه، فإن الشريف "غالب" لم يتورط في إعلان الحرب مباشرة على الفرنسيين، إلا أنه قدم المساعدات من أسلحة وسفن لنقل المجاهدين إلى مصر[41]. ويرى الباحث أن حركة الجهاد الحجازية ضد الفرنسيين في مصر كانت حركة شعبية نابعة من المجتمع الحجازي ولم يكن لها دوافع سياسية، كما أن الشريف غالب لم يكن لديه المقدرة

---

(38) **انظر ملحق رقم 1.**

(39) **انظر ملحق رقم 2.**

(40) **انظر ملحق رقم 3.**

(41) عبد المعطي، **موقف شريف مكة تجاه الفرنسيين في مصر**، صـ 22.

على مواجهة السلطان العثماني الذي أرسل فرماناً قرأ في مكة، يحث المسلمين على الجهاد. كما يرى الباحث أن تلك السياسة التي تبدو متناقضة التي مارسها "الشريف غالب" قد عادت بالفوائد على الحجاز؛ حيث إنه نجح في الحفاظ على العوائد المالية الناجمة عن استمرار حركة التجارة، وتوافد قوافل الحجيج، بجانب حفاظه على المخصصات المالية التي كانت تتجه من مصر لخدمة الحرمين الشريفين. وهو الأمر الذي يفسره الباحث بالدهاء الدبلوماسي للشريف غالب، ونجاحه في الحفاظ على الزخم الديني والاجتماعي للحجازيين، مع الوضع في الاعتبار أن الشريف غالب لم يكن في مقدوره وقف هذا التيار الجارف من الحجازيين في وجه الفرنسيين، كما سبق القول.

رد فعل المجتمع الحجازي تجاه الحملة الفرنسية على مصر:

أصاب نبأ استيلاء الفرنسيين على مصر المجتمع الحجازي بصدمة كبيرة، وخيم عليهم جو من الحزن، وليس أدل على ذلك من قول أحد الشعراء العرب فور سماعه ذلك:

يالهف نفسي لما قد جرىتوالى الخطوب على القاهرة

تولى الفرنج بها بغتةوحلو منازلها العامرة

ولكن نرجو بفضل الكريم تعادلهم كرة خاسرة.

وكما سبق القول، ففي الأول من شهر ربيع الأول 1213هـ/ أغسطس 1798م وصل فرمان السلطان العثماني إلى الحجاز، ودعا فيه إلى ضرورة تحصين الحرمين، فقرأ الفرمان بمكة وأمر "الشريف غالب" الأهالي بالاستعداد للكفاح والجهاد، وذلك بتعلم الرمي وحمل السلاح، كما أصلح سور جدة. وفي نفس الاتجاه نشط الباب العالي في إرسال الخطابات إلى شريف مكة وإمام اليمن يطالبهم بضرورة التعاون لمواجهة الغزو الفرنسي، وعدم التعاون مع الفرنسيين في مصر[42]. وفي اليوم الثاني من جماد الثاني عام 1213هـ/ 10 نوفمبر 1798م تم قراءة فرمان على الرعية في مكة المكرمة بعد صلاة العصر، ومضمونه "**ما صدر من الفرنسيين تجاه مصر القاهرة من الخيانة الظاهرة ونقضهم العهود والمواثيق، وأن قصدهم هو هدم البيت الحرام وقبة النبي صلى الله عليه وسلم وهدم بيت المقدس. ولقد أمرت الدولة بتحريض أهالي مكة وجدة وما حولها، وأن تمتثل الرعية لأوامر الدولة وتمتثل لقولها**"[43]. ولقد تجاوب أهالي الحجاز لدعوات جهاد

---

[42] عبد المعطي، **العلاقات المصرية الحجازية**، صـ 63، 64.

[43] عبد الله بن محمد بن عبد الشكور المكي، **تاريخ أشراف وأمراء مكة المكرمة، تاريخ الحجاز في العصر العثماني (1143- 1221هـ/ 1731- 1807م)**، تحقيق: محمد عبد العال محمد علي، المجلد الأول، طبع على نفقة العلامة النسابة الشريف محمد بن منصور بن هاشم آل عبد الله بن سرور، 1441هـ/ 2020م، صـ 488- 490.

الفرنسيين، كما لعبوا دوراً هاماً ومؤثراً في مقاومتهم، ولقد وصلت أنباء الحجازيين إلى مسامع المصريين، وهو الأمر الذي دفع شيخ المؤرخين "عبد الرحمن الجبرتي" –وهو أحد معاصري الأحداث، أن يتناول تحركاتهم، وأوردهم قائلاً: "**ومنها تواتر الأخبار من ابتداء شهر رجب _ يقصد الأول من رجب 1213هـ/ 9ديسمبر 1798م، بأن رجلاً "مغربياً" يقال له الشيخ الكيلاني**[44]**، كان مجاوراً بمكة والمدينة والطائف، فلما وردت أخبار "الفرنسيس" إلى الحجاز، وأنهم ملكوا الديار المصرية، انزعج أهل الحجاز لذلك، وضجوا بالحرم، وجردوا الكعبة، وأن هذا الشيخ صار يعظ الناس ويدعوهم إلى الجهاد ويحرضهم على نصرة الحق والدين، وقرأ بالحرم كتاباً مؤلفاً في معنى ذلك، فاتعظ جملة من الناس وبذلوا أموالهم وأنفسهم...."**[45].

وأما نقولا التركي، فقد وصف ردة فعل أهل الحجاز قائلا: "**وكان حينما بلغ أهالي الحجاز دخول الفرنساوية إلى الديار المصرية فارتجت سكان تلك الأرض وماجت واضطربت وهاجت، فتحرك من الأشراف السيد محمد (الجيلاني)، وقد جمع سبعة آلاف أماجيد، وحضر بهم إلى الصعيد، واجتمع إليه العربان من أهالي تلك البلدان عشرة آلاف من غير خلاف، وظهر أمره واشتهر خبره...**" [46].

وأما المؤرخ اليمني لطف الله جحاف[47] فيقدم صورة واضحة عن الموقف الأولي للحجازيين تجاه الحملة الفرنسية على مصر، فيقول: "**ودخلت سنة ثلاث عشرة ومائتين**

---

[44] **الشيخ محمد الكيلاني**: ينتسب إلى عائلة الكيلاني المغربية التي عاشت في جدة منذ فترة طويلة وعمل بعض أفرادها بالتجارة، ويبدو أن الشيخ محمد الكيلاني كان يقوم بدراسة وتدريس العلوم الدينية في جدة ومكة، وفور علمه بغزو الفرنسيين لمصر قام بالدعوة للجهاد وتجمع حوله عدد كبير من الرجال، وتبرع عدد من تجار جدة بالأموال والأسلحة لنقل هؤلاء المجاهدين إلى القصير. (انظر: حسام محمد عبد المعطي، "موقف شريف مكة تجاه الفرنسيين في مصر 1213- 1216هـ/ 1798- 1801م"، **مجلة مصر الحديثة**، العدد التاسع عشر، القاهرة (2020)، صـ 34.

[45] الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، صـ 75، 76.

[46] نقولا التركي، **ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية**، (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2015)، صـ 50. ويجب الأخذ في الاعتبار أن نقولا التركي لم يسرد مجهود الحجازيين في مقاومة الفرنسيين، وإنما يرى الباحث، أنه سفه من مجهودهم بحديثه الضئيل عنهم، بخلاف ما ذكره مؤرخين معاصرين أمثال الجبرتي، وعبد الله جحاف، حيث يقول نقولا التركي: "... **فبلغ الجنرال ديزه قدوم ذلك العسكر، فما هابه ولا تفكر، بل إنه كبس عليهم بالليل بكل قوة وشدة وحيل، فما سلم منهم غير القليل، والذي سلم تشتت في البراري والقفار وبليوا بالذل والدمار، ومات في تلك الواقعة السيد محمد الجيلاني...**". ويبدو أن نقولا التركي قد تأثر في وصف الحجازيين بمنشورات نابليون التي نشرها في الشوارع لتحذير الأهالي من الانسياق وراء الشائعات، وفقاً لقوله.

[47] أحد المؤرخين اليمنيين، يقول عنه دكتور سيد مصطفى سالم: "ولا شك أن اهتمام لطف الله جحاف بتقصي أخبار العالم الإسلامي وتسجيله زاد من أهمية وعمق كتابه، وجعله يضاهي الكتب التاريخية الكبيرة التي عاصرته، بل لا نبالغ إذا ذهبنا إلى أن مؤرخنا يقف على قدم وساق مع مؤرخ كبير مثل عبد الرحمن الجبرتي في مصر من حيث القدرة على التأليف، وإن قل عنه من حيث الشهرة والسمعة. انظر: "سيد مصطفى سالم، **نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية على مصر، نصوص مختارة من المخطوطة اليمنية "درر نحور**

وألف وفيها قام محمد المغربي الهاشمي في البلدة الحرام بوظيفة الدعاء إلى إقامة شعائر سنام الإسلام لما وردت الأعلام بما صنعه الكفار اللئام من الهجوم على ساحات مصر وتصدر الحرم الشريف، فالتف عليه خلائق واستمعوا ارشاده إلى أنهج الطرائق وفعل دعاه بالقلوب ما فعل وتسامع الناس بأخباره فوردوا إليه وبذلوا نفوسهم وأموالهم بين يديه، وكانت النساء تأتي فتستمع ما يمليه من أحاديث الحث على الجهاد فيلقين إلى الحلقة فتخاتهن وعقودهن وملبوسهن وقلن ذلك الذي علينا فاجتمعت عنده أموال واسعة ووردت إليه المتطوعين من البلاد الشاسعة فسار بهم لمناجزة أعداء الله الفرنسيين".

ومما سبق يتضح أن الشيخ "محمد الكيلاني" هو الذي حمل على كتفيه عبء الدعوة في الحجاز إلى الجهاد، وعائلة الكيلاني عائلة من أكبر العائلات الحجازية ثراءً، والتي ترجع أصولها إلى أكبر العائلات التجارية المغربية، والتي استوطنت الأراضي الحجازية وبصفة خاصة جدة في بداية القرن الثامن عشر الميلادي حيث امتهنت التجارة بين مصر وأراضي الحجاز[48]. ولقد لاقت دعوة "محمد الكيلاني" إقبالاً منقطع النظير، فأقبل الرجال المتطوعون معه من كل صوب في شبه الجزيرة العربية حيث تجلت في ذلك أروع صور الأخوة الإسلامية والانتفاضة المستبسلة للدفاع عن حمى الدين، حيث بادر أثرياء الحجاز إلى تقديم الدعم المادي إلى الشيخ "محمد الكيلاني" بصورة واسعة، فيذكر الجحاف أن: "**السيد محمد بإصلاح الحضرمي قدم خمسمائة بندقية مغربية ومائتي حربة ومائتي سيف وأربع مائة كيس حبوب أرز وألفي نعل ينتعلها فقراء المجاهدين، ومنهم الشيخ "عبد الرحمن المسيري" الذي قدم مهمات مختلفة إلى جانب ثلاث سواعي، يركبها المجاهدون وملئها ميرة. والشيخ "أحمد فاس" جهز داوين في سبيل الله، و"الشريف غالب" جهز خمسة سواعي مشحونة أيضاً وأما من أهالي ينبع فقد جهز السيد "محمد أبو العسل" داوا من داواته وثلاث سواعي أخريات من أهل ينبع**"[49]. ونتبين من ذلك أن عدداً كبيراً من هؤلاء كانوا تجارا في البحر الأحمر يعملون في التجارة بين مصر والحجاز والدليل على ذلك امتلاكهم مراكب فيه، وأن احتلال الفرنسيين لمصر سبب لهم خسائر كبيرة.

الحور العين بسيرة الإمام المنصور علي ورجال ولته الميامين (1189- 1224هـ/ 1775- 1809م"، تأليف: لطف الله بن أحمد جحاف، صنعاء، مركز الدراسات اليمنية، 1989، صـ 26.

[48] الدريني، **العلاقات بين نابليون بونابرت والحجاز**، صـ 219.

[49] سيد مصطفى سالم، **نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية على مصر**، صـ27- 30.

ولقد تقبل أهالي مكة دعوة فريضة الجهاد وكانوا أسرع من سابقيهم، وهؤلاء قد لازموا "حسن الكيلاني" ابن أخت "محمد الكيلاني"، و"طاهر الكيلاني" أخو "محمد الكيلاني" نفسه، مما يتبين لنا أن الدعوة إلى الجهاد والفريضة قد قامت بها أسرة الكيلاني بالحجاز. ولقد ذهب هؤلاء إلى القصير في صعيد مصر في أوائل يناير 1799م للانضمام إلى قوات "مراد بك" والاستعداد لهجوم شامل في منطقة سمهود[50].

ولقد تواجد في صفوف المجاهدين الحجازيين طوائف أخرى من غير الحجازيين أصلاً، وإن كان بعضهم قد ولدوا في الحجاز كالهنود والمغاربة أمثال "محمد بن محمد حياة السندي"، وهو من بلاد السند، وكان أحد الأمراء المجاهدين من الحجاز في جهاد الفرنسيين، فوضه في إمارته تلك الشيخ "محمد الكيلاني". هذا فضلاً عن الحجاج المغاربة الذين اشتركوا في الجهاد بعضهم كان يقيم في أراضي الحجاز إقامة فعلية وصنفوا بأنهم حجازيين من عرب الحجاز وليسوا من الأشراف. هؤلاء جميعاً سار بهم الشيخ "محمد الكيلاني" حتى وصل إلى جدة، وخلال سيره كان يجمع الأنصار والمجاهدين والذين بلغوا الأربعة آلاف مقاتل، والذين حملوا على تلك السفن من ميناء جدة، ثم استكمل جهاده بالذهاب إلى المدينة المنورة لجمع المتطوعة والهبات التي تلزمهم، حيث مر على رابع والخليص بين مكة والمدينة فأجابه الأهالي وقدموا إليه الأموال الكثيرة، ثم سار إلى بدر بالمدينة المنورة فقدم إليه الأهالي التبرعات القيمة وانضم إليه جماعة منهم كمتطوعة، ثم نزل بمنطقة الصفراء التي تقع بين المدينة المنورة وميناءها ينبع فوعظ بها وحض على الجهاد، فجاءته أموال كثيرة كان يجمعها وكلاء عنه. واستكمل الشيخ مسيرته إلى المدينة المنورة نفسها ، فجمع من أهلها أموالاً كثيرة، كما تطوع من أهلها ثلاثمائة مجاهد، فسار بالجميع ونزل بهم إلى ميناء ينبع تمهيداً لعبور الشاطئ الشرقي من البحر الأحمر والوصول إلى القصير في الضفة الغربية منه[51].

ووفقاً لأفضل الإحصائيات فإنه يقدر عدد المجاهدين الحجازيين الذين قدموا إلى مصر طبقاً لأفضل الأقاويل بنحو ألفين من المكيين بقيادة "حسن الكيلاني" ابن أخت "محمد الكيلاني" وأربعة آلاف طبقاً لما أورده "جحاف" من ميناء جدة، بالإضافة إلى العدد المجهول الذي سافر صحبة "محمد الكيلاني" والذي كان قريباً إلى حد كبير من رواية

---

(50) الدريني، **العلاقات بين نابليون بونابرت والحجاز**، صـ 220.

(51) سيد مصطفى سالم، نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية على مصر، صـ 96- 102.

الجبرتي بأنهم "ستمائة مع الكيلاني"، وثلاثمائة من المدينة المنورة نفسها، والثلاثمائة الآخرين من البلاد التابعة للمدينة المنورة وفقاً لرواية الجحاف، ليصبح المجموع النهائي ستة آلاف وستمائة مقاتل وهو أقرب عدد مع ما ورد بالمصادر الفرنسية[52]. ويقول كريستوفر هيرولد عن القوات الحجازية التي جاءت مصر لمناهزة الحملة: "**كان أرهب أمداد "مراد" يقصد مراد بك– هم المقاتلون العرب القادمون من الحجاز، الذين عبروا البحر الأحمر بالألوف. وقد زعموا كلهم أنهم من سلالة الرسول، وكانوا يلبسون العمائم الخضراء، ويحملون البنادق والسيوف والرماح والخناجر، وفي خلقهم صلابة تنطق بها وجوههم. وقد تبين أن كثيراً منهم من الحجاج المغاربة الذين التقطوا بسرعة في الطريق، ولكن أكثرهم وأشدهم تعصباً بالطبع عرب خلص من شبه الجزيرة. ومع أن شريف مكة لم يشجعهم بالضبط على الانضمام إلى مراد، فإنه لم يفعل شيئاً ليثنيهم**"[53]. إلا أن الباحث يختلف هنا بعض الشيء مع رواية "هيرولد" حينما يقول أن الشريف غالب لم يشجع الحجازيين على المشاركة ضد الحملة الفرنسية، فوفقاً لروايات المؤرخين المعاصرين، التي سبق الحديث عنها، فإنه يتضح أن الشريف غالب كان من أكبر المساهمين في تجهيز قوات "الكيلاني" القادمة إلى مصر لمناهزة الحملة، وهو يعد تشجيع للحجازيين على المشاركة ضد الفرنسيين.

اتخذ المتطوعين الحجازيين طريقين للوصول إلى صعيد مصر، الطريق الأول: يتمثل في السفن والعدد الكبير من المجاهدين الذين وصلوا إلى ميناء جدة، وهؤلاء اتجهوا مباشرة إلى القصير بأوامر من الشيخ "محمد الكيلاني"، أما الطريق الثاني: فيشمل العدد الأكبر الذي اجتمع حوله من المدينة المنورة وما حولها وما جاورها وهؤلاء جميعاً انطلقوا من ميناء ينبع التابع للمدينة المنورة إلى القصير مباشرة[54].

كان للمتطوعين الحجازيين تأثير على نفوس المصريين، ودافعا لاشتداد مقاومتهم ضد الفرنسيين، وهو الأمر الذي دفع بونابرت للكتابة وهو في بلاد الشام مستهجناً الأقاويل التي طالت الفرنسيين من هجمات الحجازيين، وكان يخشى من ذلك أمر احتشاد المصريين ضده نتيجة تلك الأقاويل بشأن انتصارات الحجازيين، فأورد الجبرتي ذلك الأمر كما يلي: "**وفي سابع عشرينه**[55]**، لخص الفرنساوية طوماراً قرئ بالديوان، وطبع منه عدة نسخ**

---

(52) الدريني، **العلاقات بين نابليون بونابرت والحجاز**، صـ 222.

(53) ج. كرستوفر هيرولد، **بونابرت في مصر**، صـ 258.

(54) الدريني، **العلاقات بين نابليون بونابرت والحجاز**، صـ 219.

(55) 27 ذي القعدة 1213هـ/ 2 مايو 1799م.

وألصقت بالأسواق على العادة، وكان الناس أكثروا من اللغط، بسبب انقطاع الأخبار عن الفرنسيس المحاصرين لعكا، والروايات عمن بالصعيد والكيلاني والأشراف الذين معه.... وصورتها: "...هذا آخر كتاب ساري عسكر الكبير إلى وكيله بدمياط، وأرسل إلينا بالديوان حضرة الوكيل ساري عسكر "دوجا" الوكيل بمصر المحروسة، يخبرنا بصورة هذا المكتوب، ويأمرنا أننا نلزم الرعايا من أهل مصر والأرياف أن يلزموا الأدب والإنصاف، ويتركوا الكذب والخراف، فإن كلم الحشاشين يوقع الضرر للناس المعتبرين، فإن حضرة ساري عسكر "دوجا" الوكيل بلغه أن أهل مصر والأرياف يتكلمون بكلام لا أصل له من قبل الأشراف، والحال أن الأشراف الذين يذكرونهم ويكذبون عليهم جاءت أخبارهم من حضرة ساري عسكر الصعيد، يخبر الوكيل "دوجا" بأن الأشراف المذكورين الذين صحبة الكيلاني، قد مزقوا كل ممزق وانهزموا وتفرقوا، فلم يكن الآن في بلاد الصعيد شيء يخالف المراد، وسلم من الفتن والعناد، فأنتم يا أهل مصر ويا أهل الأرياف اتركوا الأمور التي توقعكم في الهلاك والتلاف، وامسكوا أدبكم قبل أن يحل بكم الدمار...."[56].

وفي واقع الأمر، فقد كانت هجمات الحجازيين في الصعيد أحد الأسباب التي دفعت "بونابرت" للإقفال من حصار عكا والعودة إلى مصر، ويذكر الجبرتي أنه: عندما عجز الفرنسيين عن أخذ عكا، وعزموا على الرجوع إلى مصر أرسل "بونابارت" مكاتبة إلى "الفرنسيين" المقيمين بمصر، يقول فيها: "إن الأمر الموجب للانتقال عن محاصرة عكا خمسة عشر سبباً"، ..... كان السادس منها قول نابليون: "**بلغنا توجه أهل الحجاز صحبة الجيلاني لناحية الصعيد**"[57].

الدور العسكري للحجازيين في مقاومة الحملة الفرنسية على مصر:

نزل السيد "طاهر الجيلاني" وابن اخته "حسن" إلى القصير في أول يناير 1779م. وعند وصول الأسطول الحجازي من جدة، التقى بأسطول فرنسي صغير كان نابليون قد أمره باحتلال القصير حيث ضرب الأسطول الفرنسي ضرباً شديداً[58]. وانتقل الحجازيون إلى قنا ثم انضموا إلى جيش "مراد بك" الذي كان يعد لهجوم كبير على الفرنسيين. وفي 22

---

(56) الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، صـ 96، 97.

(57) الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، صـ 115، 116.

(58) عبد المعطي، **العلاقات المصرية الحجازية**، صـ 66.

يناير 1799م دارت معركة عنيفة في سمهود أثبت فيها المجاهدون الحجازيون قوة وصلابة في الهجوم، واستشهد حوالي مائة رجل منهم ورجع الباقون إلى قنا، وفي 12 فبراير سنة 1799م شن المجاهدون الحجازيون ومعهم عدد كبير من الأهالي على مراكز الفرقة 61 في قنا هجوماً شرساً، ولكن القوات الفرنسية ردت على هذا الهجوم، وجرح قائد القوات الفرنسية "كونروا" وفي اليوم التالي 13 فبراير كثف الحجازيون والأهالي الهجوم على القوات الفرنسية التي بادرت بالرد باستخدام المدفعية، مما أنزل بالحجازيين هزيمة كبيرة، وبالرغم من قوة نيران المدفعية الفرنسية فإن الأهالي لم يستسلموا، بل استبسلوا في المقاومة غير مكترثين بضعف امكانياتهم وسوء حالتهم، وتذكر المصادر الفرنسية عدد القتلى من الحجازيين في هذه المعركة فتقدرهم بحوالي 300 قتيل. وأمام ذلك انسحب الحجازيون إلى قرية أبو مناع[59]. وفي قرية أبو مناع وفي 17 فبراير تقدم الجنرال (فريان) نحوها، ووجه الفرنسيون طلقات مدافعهم على القوات الحجازية والمصرية ولم يستطع هؤلاء تحمل ضربات القنابل طويلاً، ففر عدد منهم إلى الصحراء، وبلغ عدد القتلى من الحجازيين في هذه المعركة حوالي أربعمائة قتيل[60].

---

[59] عبد المعطي، **العلاقات المصرية الحجازية**، صـ 67.

[60] عبد المعطي، **العلاقات المصرية الحجازية في القرن الثامن عشر**، صـ 67.

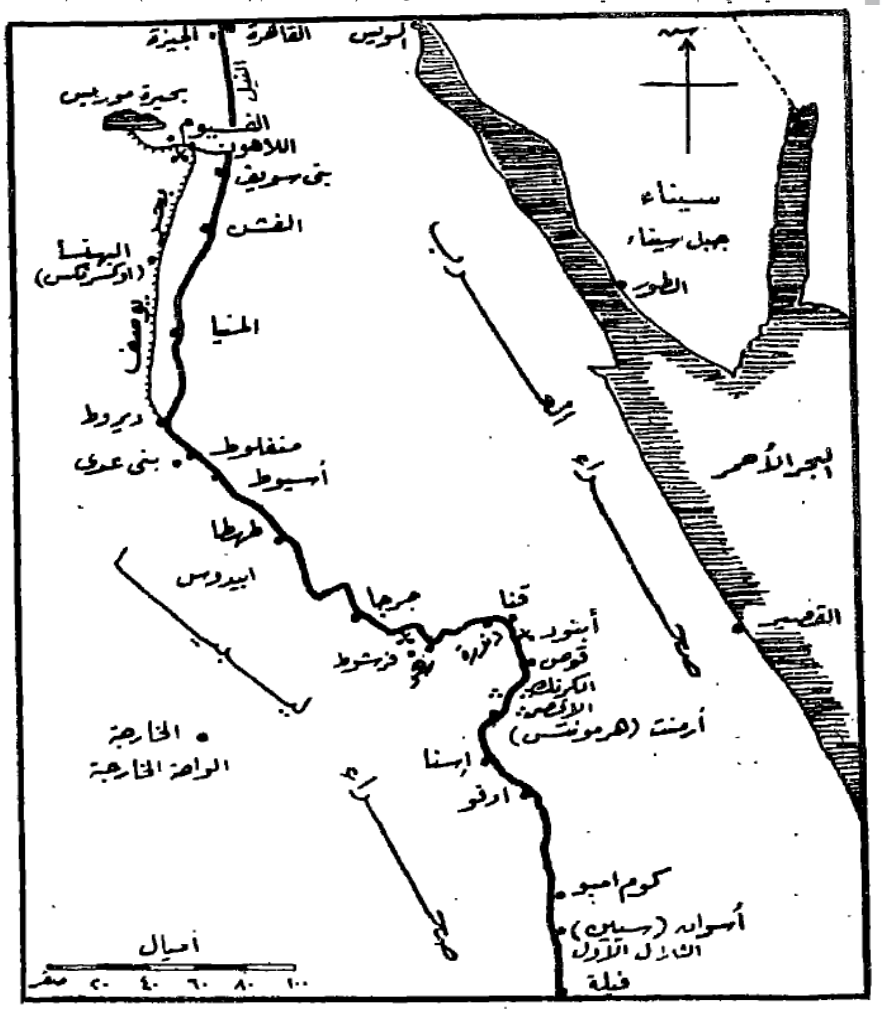

الصعيد وقت الحملة الفرنسية[61]

وفي 30 فبراير 1799م وفي القصير وصل الشيخ "محمد الكيلاني" إلى القصير ومعه ستمائة من المجاهدين الحجازيين، وعلى الفور تلقاه أتباعه فأرسل إلى من بقي منهم في قنا حيث تجمعوا إلى الجنوب منها، وكان الجنرال "ديزيه" يتحرك من قوص في طريقه إلى أسيوط، وكان الأسطول الفرنسي تحت قيادة القومندان موراندي (Murandi) ويتألف من اثنتي عشرة سفينة محملة بالمدافع والذخائر والمؤن الخاصة بالجيش تتقدمها السفينة الحربية إيطاليا التي كانت تحمل ذخيرة نصف الفرقة 61 وبعض الرجال المسلحين إلى جانب عدد من المرضى والجرحى. وبينما كان الأسطول الفرنسي يسير في النهر اعترضته رياح شمالية شديدة اضطرته إلى التوقف عند أبنود. وقد استغل الشيخ "محمد الكيلاني" وابن أخته "حسن" ذلك وقاموا مع قواتهم وبمعاونة عدد كبير من الأهالي بمهاجمة السفن

---

[61] ج. كرستوفر هيرولد، **بونابرت في مصر**، صـ 261.

الفرنسية وأطلقوا عليها الرصاص، فردت السفينة إيطاليا بإطلاق مدافعها عليهم فقتلت عدد من الحجازيين والأهالي، ولكنهم لم يضطربوا، وهاجموا السفن والقوارب الصغيرة، واستولوا عليها وأفرغوا شحنتها من المؤن والذخائر وقطع السلاح اللازمة لهم. ثم ركبوها وقصدوا الاستيلاء على السفينة إيطاليا، وعندما رأى "موراندي" أن المجاهدين الحجازيين قد صعدوا على ظهر السفينة أمر بإشعال النار في مستودع البارود بالسفينة، وألقى هو ورجاله بأنفسهم في النيل حيث قتلوا بوابل من الرصاص وقد كانت خسائر الفرنسيين جسيمة في هذه المعركة حيث لقى أكثر من خمسمائة جندي فرنسي حتفهم، هذا بالإضافة إلى فقدهم كميات كبيرة من الذخيرة والسلاح فكانت أكبر خسارة مني بها الجيش الفرنسي في الوجه القبلي[62]. وتعد هذه المعركة الحاسمة ثمرة التعاون المشترك بين المصريين وعرب الحجاز الذين ازدادت أعدادهم بعد قدوم الدفعة الثانية بقيادة الشيخ "محمد الكيلاني" التي انضمت إلى سابقتها، كما تحقق هذا الانتصار بفضل الروح العالية للمقاتلين الذين ألحقوا بالعدو خسائر فادحة في الأرواح والمعدات وضحوا بأنفسهم في مواجهة مدفعيته وأسلحته الحديثة[63].

عندما علم القائد الفرنسي "بليار" بنبأ تحطيم الأسطول الفرنسي عبر النيل، أسرع إلى الشمال حيث وصل إلى أبنود في 8 مارس في الوقت الذي كان الأهالي والحجازيون قد تحصنوا في أبنود ونصبوا بها المدافع الفرنسية التي غنموها من الأسطول الفرنسي وفور وصول قوات "بليار"، صوب الأهالي والمجاهدون الحجازيون نيران مدافعهم على الفرنسيين ففتكت بهم فتكاً ذريعاً، وذاق الفرنسيون لأول مرة شدة نيران مدفعيتهم وهي في أيدي خصومهم. ويبدو أن اشتراك الشيخ "محمد الكيلاني" في هذه المعركة قد سبب إزعاجاً للفرنسيين، فبعد وصوله مباشرة أرسل إلى الفرنسيين كتاباً يدعوهم فيه إلى الإيمان بالله ورسوله وإلا فالقتال، فأجابوه إلى القتال. لم يتوقف المصريون وعرب الحجاز عن القتال، حيث استمرت معركة أبنود ثلاثة أيام بدءاً من يوم 8 مارس إلى يوم 10 مارس 1799م/ 1-3 شوال 1213هـ، واشتد فيها القتال بين الفريقين[64]. وأمام ذلك أمر بليار بحرق أبنود بسبب استبسال الأهالي والحجازيون في الدفاع عنها، ولم يستسلم الحجازيون لذلك، بل تجمعوا في قصر حصين كان مقراً لكشاف المماليك فلجأوا إليه وإلى مسجد مجاور أيضاً

---

(62) عبد المعطي، **العلاقات المصرية الحجازية**، صـ 67، 68.

(63) الغامدي، **دور عرب الحجاز في مقاومة الحملة الفرنسية على مصر**، صـ 29.

(64) الغامدي، **دور عرب الحجاز في مقاومة الحملة الفرنسية على مصر**، صـ 31.

واحتموا فيهما من نيران الفرنسيين، وبدأوا في قتال الفرنسيين مستخدمين الذخيرة التي غنموها فاشتد القتال حول القصر والمسجد، ولم يتوقف القتال ليلاً إلا بعد أن قام الفرنسيون بحرق المسجد وأخذوا يحاصرون القصر طوال الليل بعد أن تكبدوا خسائر فادحة. وفي يوم 2 شوال 1213هـ/ 9 مارس 1799م استؤنف القتال مرة ثانية، وقام الفرنسيون بضرب القصر الذي يحتمي به الأهالي وعرب الحجاز بالمدافع، وقد دفع ذلك بعدد كبير من الأهالي والمماليك إلى محاولة نصرتهم ورفع الحصار عن هذا القصر، ولكن الفرنسيون كانوا لهم بالمرصاد. ولقد تمكن الفرنسيون من دخول إحدى ساحات القصر وإشعال النيران فيه، وقد قاوم عرب الحجاز ببسالة حيث أمسك كل منهم سيفاً بيد وبندقية بالأخرى وهم يطلقون النار على الفرنسيين ويقفزون إلى اللهب في محاولة لإخمادها بأقدامهم. وكان مشهد المعركة مشهد يثير الرعب والإعجاب في نفوس الفرنسيين، فكانت فترات السكون يقطعها صوت الصلاة وترديد الأناشيد الدينية وصيحات الحرب، ويعقب ذلك قيامهم بالهجوم رغم يقينهم بأنهم سيلقون حتفهم[65]. ومع جنوح الليل تمكن الشيخ محمد الكيلاني من الفرار ومعه عدد كبير من الحجازيين من القصر إلى قرية بئر عنبر[66].

انضمت إلى القوات الحجازية في بئر عنبر القوات المملوكية بقيادة "حسن بك الجداوي"، و"عثمان بك حسن"، وبالقرب من بئر عنبر على الطريق بين قنا والقصير وقعت معركة عنيفة بين القوات المملوكية والحجازية والقوات الفرنسية بقيادة "ديزيه" حيث دارت معركة شديدة بين الجانبين وكانت خسائر الفرنسيين فيها كبيرة فقتل حوالي 44 قتيلاً، و20 جريحاً، وانسحب المماليك إلى أسوان، أما الشيخ "محمد الكيلاني" فقد انتقل إلى قرية حجازة الواقعة جنوب قوص بقرب الجبل الشرقي، حيث لفظ بها أنفاسه الأخيرة بعد أن أسخنته جراحه في معركة أبنود، وتفرق الحجازيون من بعده حيث ذهب بعضهم إلى القاهرة وبعضهم إلى الشام وهكذا. ولقد نجح "بليار" في احتلال الطريق المؤدي إلى بئر عنبر، وتم احتلال حجازة في آخر مارس، فأصبح الفرنسيون يسيطرون على رأس الطريقين الموصلين إلى النيل[67].

استأنف أهالي البلاد الواقعة بين قنا وجرجا ثورتهم، وقد تصدى لها الفرنسيون لمنعهم من السيطرة على البر الشرقي لقطع مواصلات الجيش الفرنسي، كما كلف ديزيه الكولونيل

---

(65) الغامدي، **دور عرب الحجاز في مقاومة الحملة الفرنسية على مصر**، صـ 31، 32.

(66) عبد المعطي، **العلاقات المصرية الحجازية**، صـ 68.

(67) عبد المعطي، **العلاقات المصرية الحجازية**، صـ 69.

"موراند: Morand" قومندان جرجا بالوقوف في وجه الثوار، ولما شعر الأهالي وعرب الحجاز بحرج موقفهم لم ينتظروا حتى يسد عليهم الفرنسيون الطريق، ومروا على شاطئ النيل بغرب (برديس)، وفي يوم 29 شوال 1213هـ/ 5 إبريل 1799م، عاد "موراند" إلى جرجا ومعه مئتان وخمسون رجلاً وذلك للقائهم في برديس، والتقى "موراند" بهم في غرة ذي القعدة 1213هـ/ 6 إبريل 1799م، وكان القتال عنيفاً، مما اضطر معه "موراند" إلى التقهقر إلى جرجا لحماية مواقع الفرنسيين بها. وفي اليوم التالي 2 ذو القعدة 1213هـ/ 7 إبريل 1799م قام الأهالي يعاونهم عرب الحجاز والمماليك بمحاولة استرداد جرجا، وانضم إليهم الكثير من الأهالي من البلاد التي مروا بها حتى تضاعف عددهم، فكان عدد الأهالي ثلاثة آلاف رجل يعاونهم جماعة من المماليك وعرب الحجاز وقاموا بالهجوم على (جرجا)، وتمكن فريق منهم من الدخول فيها. ولكن موراند تصدى لهم بقواته ودار بينهم قتال عنيف. وقدر عدد قتلى المهاجمين بمئة وخمسين قتيلاً، بينما كانت خسائر الفرنسيين ستة قتلى وأحد عشر جريحاً. ولقد امتدت ثورة الأهالي إلى طهطا يعاونهم عرب الحجاز والمماليك، وقام الثوار بالاستيلاء عليها فحضرت إحدى الكتائب الفرنسية من أسيوط بقيادة "لاسال: Lassale"والتقى بالثوار في (جهينة) في يوم 5 ذي القعدة 1213هـ/ 10 إبريل 1799م، وقام الفرنسيون بحصار القرية وضربها بالمدافع لكن الأهالي وعرب الحجاز والمماليك ظلوا يقاومون لعدة ساعات، واحتدمت المعركة بينهم داخل القرية التي تحصن الثوار في إحدى دروبها الحصينة، وقد اقتحمها الفرنسيون واستولوا عليها، وخسر الأهالي وعرب الحجاز ما يقرب من ثلاث مئة قتيل، وأشعل الفرنسيون النار في القرية. وهنا بدأ يتضاءل مشاركة عرب الحجاز في مواجهة الفرنسيين[68].

لقد كانت خسائر القوات الفرنسية من جانب الحجازيين فادحة، وتعبر عن مدى صلابة هؤلاء الحجازيين في مواجهتهم، فعلى سبيل المثال لا الحصر في موقعة أبنود أو السفينة ايطاليا لقى عدد كبير من القوات الفرنسية حتفهم قدروا بخمسمائة جندي فرنسي، خلافاً لفقدانهم سفينة نابليون المسماة (إيطاليا) مع كميات هائلة من الذخيرة والسلاح، وتلك الحادثة الفريدة في الوقائع بين الفرنسيين والحجازيين كانت الأخطر على وجه الإطلاق لأنها كانت الخسارة الأفدح التي منى بها الجيش الفرنسي في الوجه القبلي بشكل كامل. هذا وقد ثبت لدى الفرنسيين أن قوة الحجازيين وفلولهم بين النيل والقصير كانت محل انتظار لإمدادات جديدة تعبر عن شجاعتهم ووقف المد الفرنسي، فما أن يظهر في الأفق

---

(68) الغامدي، **دور عرب الحجاز في مقاومة الحملة الفرنسية على مصر**، صـ 36، 37.

البعيد أن "ديزيه" يسيطر على صعيد مصر، ولكن ما يلبث أن يولي ظهره حتى يلتئم شمل الحجازيين المتفرقين ويحتلوا الإقليم، وهذا الإزعاج الذي سببه الحجازيون للفرنسيين ترك أثر كبير لدى "ديزيه" في مطاردتهم شمالاً وجنوباً.

لقد عنى "ديزيه" بالحملة على ميناء القصير على البحر الأحمر، فمنه جاء عرب الحجاز الذين شدوا أزر الأهالي في مقاومة الفرنسيين. ولذلك لم يكن هناك مناص أمام الفرنسيين لصد هجمات المجاهدين الحجازيين إلا باحتلال هذا الميناء لأهميته الاستراتيجية على البحر الأحمر ولأسباب منها منع ورود الإمدادات من المجاهدين المتطوعة من الحجاز ذاتها، وإعادة حرية التجارة مع بلاد شبه الجزيرة العربية، فضلاً عن منع البريطانيين من السيطرة على البحر الأحمر كما سيطروا على البحر المتوسط لأنه في حالة سيطرتهم عليهما سيصبح موقف الفرنسيين في مصر ميؤوس منه، وهو ما جرى تنفيذه بالفعل عندما احتل "بليار" القصير، ففي 29 مايو سنة 1799م جرد القائد "بليار" حملة عسكرية على مدينة القصير وميناءها فاحتلهما دون مقاومة تذكر، وقد ترك فيها قوة عسكرية مجهزة بالمدافع والذخائر تحت قيادة الجنرال دونزيلو (Donzelot) وقفل راجعاً إلى قنا بعد اتخاذ كافة التدابير الدفاعية اللازمة. وبالاستيلاء على ميناء القصير الذي يعد مفتاح الوجه القبلي عن طريق البحر الأحمر بالنسبة للحجاز والمجاهدين الحجازيين والذي يعد أيضاً نهاية المطاف للحركات الحربية التي تم بها احتلال الصعيد كافأ نابليون كل من "ديزيه" و"بليار" لاحتلالهم صعيد مصر، واطمأن "ديزيه" لأول مرة بأنه أغلق أبواب المجاهدين الحجازيين وامداداتهم ليؤكد لأول مرة سلطته على صعيد مصر[69].

[69] عبد المعطي البيومي سالم الدريني، **المرجع السابق**، صـ 222، 223، 224.

الخاتمة:

أظهرت أزمة الحملة الفرنسية التي أحلت على مصر مدى عمق العلاقة بين مصر والحجاز؛ حيث كانت مقاومة الحجازيين للحملة الفرنسية على مصر شوكة في عضد الحملة وذلك بشهادة الفرنسيين أنفسهم. وأما عن الشيء الرائع في تلك العلاقة، أن المقاومة الحجازية لم تكن نابعة عن أهداف سياسية، ولكنها كانت رغبة شعبية حقيقية. فلقد عاون التجار الحجازيون هؤلاء المجاهدين بتوفير السفن اللازمة لنقلهم إلى ميناء القصير في مصر وكذلك إمدادهم بالمؤن والأسلحة اللازمة للمقاومة. وفي واقع الأمر كانت مقاومة الحجازيون للحملة الفرنسية في مصر عاملاً مؤثراً في ارتفاع الروح المعنوية للمصريين وخاصة بعد انتشار الأخبار حول بطولاتهم في الصعيد. وقيل عن المقاتلين الحجازيون على لسان المؤرخ هيرولد: "**وكأن هؤلاء الرجال من سلالة أسلافهم، الذين فتحوا نصف العالم قبل أحد عشر قرناً، وقد جاءوا في عام 1798 ليقاتلوا الفرنسيين الكفرة بنفس الإيمان**"[(70)]. كما أن الشيخ "محمد الكيلاني" ضرب أروع الأمثلة في الجهاد، والتضحية بالنفس والمال.

ولقد أثبتت الدراسة الحالية أن للشعب الواحد على جانبي البحر الأحمر مصير مشترك عبر التاريخ، فقد كان البحر الأحمر محط أنظار البحارة البريطانيين والفرنسيين على حد السواء، وسبق أن قدم الرحالة الفرنسيين وصفاً دقيقاً لأهم مدن وموانئ البحر الأحمر. كما كانت نية نابليون هي الاستيلاء على طريق تجارة البحر الأحمر، وفرض هيمنته عليه، تمهيداً للسيطرة على طريق المواصلات العالمي، وتعويض خسائر المستعمرات الفرنسية. وهو الأمر الذي أثر بطبيعة الحال على الظروف الاقتصادية في الحجاز، وخاصة مع توقف الحركة التجارية أعقاب سيطرة البريطانيين على جزيرة بريم عند مدخل البحر الأحمر.

ولا زال البحر الأحمر يمثل من الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية ما يدعو إلى وضع الخطط والتنسيق المشترك بين الشعبين المصري والسعودي حفاظاً على أمنهما القومي بوجه خاص، والأمن القومي العربي بوجه عام.

---

(70) كرستوفر هيرولد، **بونابرت في مصر**، صـ 258.

الملاحق

ملحق رقم (1)

من الرسائل المتبادلة بين نابليون بونابرت والشريف غالب:

الرسالة الأولى بتاريخ 25 أغسطس 1798م:

"إنني إذ أخطركم بدخول الجيش الفرنسي مصر أعتقد أنه من الواجب أن أطمئنكم على عزمي الوطيد على أن أحمي بكل السبل رحلة الحجيج إلى مكة، وستظل المساجد وكل الأوقاف التي لمكة والمدينة في مصر في حوزتهما كما كانت في الماضي. إننا أصدقاء للمسلمين ولعقيدة الرسول، ونحن راغبون في القيام بكل ما من شأنه أن يسركم ويكون في صالح الدين.

وإنني لأرغب في أن تعلنوا في كل مكان أن قافلة الحج لن تعاني من أي توقف، ولن تخشى شيئاً من الأعراب.

بونابرت"[71].

[71] محمد زكريا عناني، مراسلات متبادلة بين الشريف غالب بن مساعد وبين نابليون بونابرت ورجال حملته على الشرق (إضافات)، **الدارة**: دارة الملك عبد العزيز، مجلد 21، عدد 4، 1996، صـ 7.

ملحق رقم (2)

الرسالة الثانية

القاهرة في 27 أغسطس 1798م:

"سيتبين لكم عن طرق الرسائل التي ستصل إليكم من الديوان ومن مختلف التجار في هذا البلد، مدى الرعاية التي أكرسها لرعاية العلماء والأشراف وكل رجال الشريعة. وسترون كذلك أني عينت كذلك مصطفى بك كتخدا سيد أبي بكر باشا وحاكم القاهرة، وسيقوم بمرافقة الموكب مع قوة تكفل لها الحماية من غارات الأعراب.

وإني لجد راغب في أنكم، عن طريق ردكم، تعرفوني عما إذا كنتم تودون أن تقوم فرق تابعة لي بحماية القافلة، أو يكتفي بفيلق خيالة من أهل البلاد، ولكن في جميع الأحوال بلغوا جميع التجار والمؤمنين بأنه لا يوجد للمسلمين من هو أكثر مني صداقة لهم، وكذلك للأشراف وكل الذين يكرسون وقتهم وطاقاتهم لتعليم الشعب، فليس لهم أشد غيرة على حمايتهم، وبأن التجارة لن تكون فحسب بمنأى عن الخطر، بل ستكفل لها حماية خاصة، وبانتظار ردكم مع رجوع البريد. لتبلغني كذلك عن الضرورات التي تحتاجون إليها من قمح أو أرز وسأهتم بأن ترسل كلها إليكم.

بونابرت"[72].

[72] محمد زكريا عناني، **مراسلات متبادلة بين الشريف غالب بن مساعد وبين نابليون بونابرت**، صـ 8، 9.

ملحق رقم (3)

رسالة من الشريف غالب بن مساعد شريف مكة إلى نابليون بونابرت، والرسالة لا تحوي تاريخ، ولكن يفهم منها أنها رد على الرسالة السابقة.

"بسم الله الرحمن الرحيم، والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين،

من الشريف غالب بن مساعد شريف مكة المشرفة، إلى أمير الجيوش الفرنساوية بونابارته، ساري عسكر الكبير في الأقاليم المصرية، يجري الله الخير على يديه.

بعد السلام عليكم، فقد وصل كتابكم، وفهمنا لحامل ما حواه خطابكم، وما ذكر عن غلباسكم لمصطفى أغا كتخدا والي مصر إمارة حجاج المسلمين فهو عين الصواب، وذكرتوا بأنكم عازمين على إرسال حجاج المسلمين على بيت رب العالمين، بطلبا أمنيتهم من طرفنا، فلا مانع لهم، ولهم أمان الله من جميع المخاوف، ولا صاد لهم عن بيت الله وزيارة رسول الله، ولا جعل الله الكعبة البيت الحرام إلا لأداء فريضة حج الإسلام فيحجون كعادتهم وهم آمنون، وما ذكرتوا عن تمشيت بن التجار، فلا يخفاكم أن المذكورين غير آمنين الغوايل التي راواها في الزمان السابق. فإذا ردتوا ذلك أرسلوا لهم ما يؤمن خواطرهم وبينوا لهم ما تأخذوه من العشور على بنيانهم وأموالهم فإذا فعلتم فهم يصلون إليكم، وبخلاف ذلك لا يأمنون.

هذا ما عني لنا به التسطير، وما ذكرتوا من تعرض العربان للحجاج المسلمين فلا يصير ذلك بحول الله وقدرته وهمتكم العالية.

والسلام على من اتبع الهدى"[73].

---

[73] محمد زكريا عناني، **مراسلات متبادلة بين الشريف غالب بن مساعد وبين نابليون بونابرت**، صـ 8، 9.

ملحق رقم (4)

رسالة من نابليون بونابرت إلى (سلطان مكة)[74] بتاريخ 25 يناير 1799

"إلى سلطان مكة

لقد تسلمت الرسالة التي كتبتموها إلى، وفهمت محتواها، وأرسل لكم اللائحة التي قمت بوضعها لجمرك السويس، وفي عزمي أن يتم تنفيذها بدقة.

ولا يخالجني الشك في أن تجار الحجاز سيلحظون بامتنان مدى التناقص الذي طرأ على الرسوم الجمركية، وذلك من أجل الصالح العام للتجارة، وتستطيع أن تطمئنهم بأنهم سيحظون هنا بموفور الحماية.

وفي جميع الحالات التي تحتاج فيها لشيء من مصر، ما عليك إلا أن تعرفني، وسيكون مدعاة لسروري أن أعبر لكم عن دلائل تقديري.

بونابرت"[75].

---

[74] الرسالة موجهة إلى سلطان مكة وليس إلى شريف مكة، ولم يتضح السبب في هذا التطور في العلاقة، وهل للأمر أبعاد سياسية أم لا. انظر: محمد زكريا عناني، "**مراسلات متبادلة بين الشريف غالب بن مساعد وبين نابليون بونابرت**"، صـ 10.

[75] محمد زكريا عناني، **مراسلات متبادلة بين الشريف غالب بن مساعد وبين نابليون بونابرت**، صـ 10.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً المصادر:

-مخطوطات تم تحقيقها:

-سيد مصطفى سالم، **نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية على مصر، نصوص مختارة من المخطوطة اليمنية "درر نحور الحور العين بسيرة الإمام المنصور علي ورجال ولته الميامين (1189- 1224هـ/ 1775- 1809م"، تأليف: لطف الله بن أحمد جحاف**، صنعاء، مركز الدراسات اليمنية، 1989.

-عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، تحقيق الأستاذ الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، الجزء الثالث، (القاهرة: الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصرة، 1998).

-عبد الله بن محمد بن عبد الشكور المكي، **تاريخ أشراف وأمراء مكة المكرمة، تاريخ الحجاز في العصر العثماني (1143- 1221هـ/ 1731- 1807م)**، تحقيق: محمد عبد العال محمد علي، المجلد الأول، طبع على نفقة العلامة النسابة الشريف محمد بن منصور بن هاشم آل عبد الله بن سرور، 1441هـ/ 2020م.

-نقولا التركي، **ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية**، (المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2015).

ثانياً المراجع العربية:

-أندريه ريمون، **الحرفيون والتجار في القاهرة في القرن الثامن عشر**، ترجمة: ناصر أحمد إبراهيم؛ باتسي جمال الدين، مراجعة وإشراف: رءوف عباس، (القاهرة: المشروع القومي للترجمة- المجلس الأعلى للثقافة، 2005).

-ج. كرستوفر هيرولد، **بونابرت في مصر**، ترجمة: فؤاد أندوراس، مراجعة: محمد أحمد أنيس، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998).

-جيرار، **الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر**، ضمن موسوعة وصف مصر، تأليف علماء الحملة الفرنسية، المجلد الرابع، الجزء الأول: "الزراعة – الصناعات والحرف – التجارة"، ترجمة: زهير الشايب، (مصر: مكتبة الخانجى، 1978).

-حسام محمد عبد المعطي، **العلاقات المصرية الحجازية في القرن الثامن عشر**، تاريخ المصريين، العدد 149، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999.

-صلاح أحمد هريدي، **الجاليات في مدينة الإسكندرية في العصر العثماني (923 – 1213هـ/ 1517 – 1798م) – دراسة وثائقية من سجلات المحكمة الشرعية**، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، 1424هـ/ 2004م.

-عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، **الريف المصري في القرن الثامن عشر**، (القاهرة، مكتبة مدبولي، 1986)، ط 2.

-عزت حسن أفندي الدارندلي، **الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط عثماني– مخطوطة "ضيانامة" للدارندلي**، دراسة وترجمة: جمال سعيد عبد الغني، (القاهرة: تاريخ المصريين– الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد 134).

-عصام محمد شبارو، **المقاومة الشعبية المصرية للاحتلال الفرنسي والغزو البريطاني**، (بيروت– لبنان: دار التضامن للطباعة والنشر والتوزيع، 1992م).

-نللي حنا، **تجار القاهرة في العصر العثماني – سيرة أبو طاقية شاهبندر التجار**، ترجمة وتقديم: رءوف عباس، (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 1997).

رابعاً الدوريات:

-محمد زكريا عناني، مراسلات متبادلة بين الشريف غالب بن مساعد وبين نابليون بونابرت ورجال حملته على الشرق (إضافات)، **الدارة**: دارة الملك عبد العزيز، مجلد 21، عدد 4، 1996.

-حسام محمد عبد المعطي، "موقف شريف مكة تجاه الفرنسيين في مصر 1213–1216هـ/ 1798– 1801م"، **مجلة مصر الحديثة**، العدد التاسع عشر، القاهرة (2020).

-حسين بن محمد الغامدي، "دور عرب الحجاز في مقاومة الحملة الفرنسية على مصر (1213–1216هـ/ 1798– 1801م)"، **مجلة الدارة**، مجلد 25، عدد 1، (1420هـ/ 1999م).

-عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، "الحجازيون في مصر في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي"، **الدارة**– السعودية، مجلد 11، عدد 1، 1985.

-عبد المعطي البيومي سالم الدريني، **العلاقات بين نابليون بونابرت والحجاز**، المؤتمر الدولي الثالث: **العلاقات المصرية الفرنسية عبر العصور**، جامعة قناة السويس– كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2011.

-القحطاني، حمد محمد جاسم؛ عبد الرحيم، عبد الرحيم عبد الرحمن، **الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في إقليم الحجاز**، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد 104، الكويت، 2002.